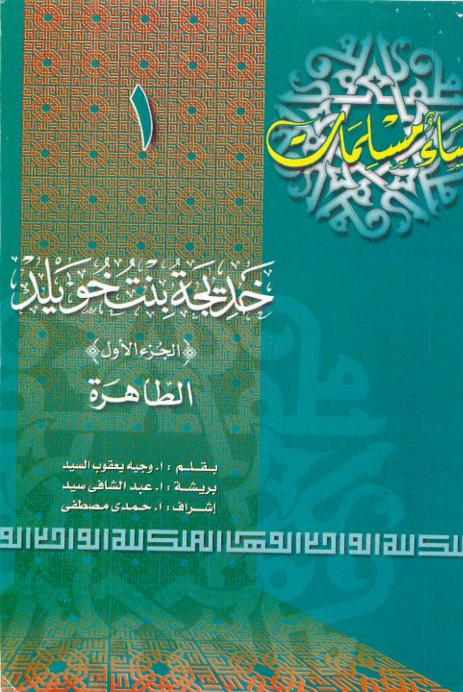

نساء مسلمات
1
خديجة بنت خويلد
الجزء الأول
الطاهرة
بقلم : ا. وجيه يعقوب السيد
بريشة : ا. عبد الشافى سيد
إشراف : ا. حمدى مصطفى

هذه السيدةُ هى خيرُ نساء الجنة ، كما قالَ رسولُ اللّه ﷺ .
كانَ الرسولُ ﷺ يحبُّها حبًّا عظيمًا ، حتَّى إنه كانَ دائمَ الذكر لها والثناء عليها بعد موتها ، لدرجة جعلت السيدة عائشةَ تشعرُ بالغَيْرَة منها ، وتغبطُها على مكانتها من رسول اللّه ﷺ ، حتَّى إنها قالتْ له ذاتَ يوم مداعبةً :
ـ هلْ كانتْ إلا عجوزًا قدْ أبدلك اللّهُ خيرًا منها ؟
فغضبَ الرسولُ ﷺ وقال فى حسم :
ـ لا ، واللّه ما أبدلنى اللّهُ خيرًا منها ، آمنتْ بى إذْ كفرَ الناسُ ، وصدَّقتنى إذْ كذَّبنى الناسُ ، وواسَتْنى بما لها إذْ حرَمَنى الناسُ . ورزقنى اللّهُ منها الْولَدَ دونَ غَيْرها من النساء !
وعندئذ علمت السيدةُ عائشةُ المكانةَ التى تحتلُّها هذه السيدةُ فى قلب الرسول ﷺ ، وأدركتْ أنه من الصعب أنْ تحتلَّ إحدى زوجات النبىِّ ﷺ هذه المكانةَ أبدًا ..
إنها السيدة (خديجةُ بنتُ خُويلد) التى كانتْ تُلَقَّبُ فى الجاهليَّة بالطاهرة لطهارة سيرتها ونقاء سريرتها ، كما كانتْ تُعْرَفُ بأنها سيدةُ نساء قُريش .
تزوجتْ فى الجاهليَّة منْ (هند بن زرارة) ثُمَّ من



(عتيق ابن عائذ) ، وبعدَ وفاتهما ورثتْ عنهما مالاً كثيراً ، فساعدها ذلك على أنْ تعمل بالتجارة ، وسرعانَ ما تبوأتْ مكانتها بينَ التجار ، وصارَ كثيرٌ من الرجال يعملونَ لديها ، وكانَ أشرافُ مكةَ يتمنونَ الزواجَ بـ (خديجةَ) لمكانتها وحسبها وجمالها ، لكنها كانتْ ترفُضُ ذلك لعدمِ كفاءةِ هؤلاءِ لها .

وشاءتْ إرادةُ اللَّهِ أنْ يكونَ اللقاءُ بينَ محمدٍ ﷺ وبينَ (خديجةَ) ، فقد علمَ عمُّه (أبو طالبٍ) أنَّها تُجهِّزُ لخروجِ تجارتها إلى الشامِ ، فقال لابنِ أخيه :

- يا بنَ أخي ، أنا رجلٌ لا مالَ لي ، وقد اشتدَّ الزمانُ علينا ، وقدْ بلغني أنَّ (خديجةَ) استأجرتْ فُلانًا ليعملَ لديها ، فهلْ لكَ أنْ أُكلِّمَها ؟

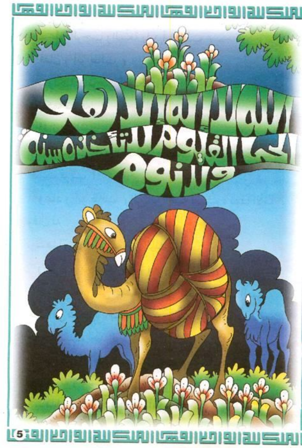
فقال محمدٌ ﷺ :

- ما أحببتَ !

فخرجَ أبو طالبٍ إليها ، فقال لها :

- هلْ لكِ يا (خديجةُ) أنْ تستأجري ابنَ أخي ؟ فقدْ بلغنا أنكِ استأجرتِ فُلانًا .

فقالتْ خديجةُ :


الملك لله الواحد القهار
الله لا إله إلا هو
الحي القيوم لا تأخذه سنة
ولا نوم

ـ على الرَّحبِ والسَّعة يا (أبا طالبٍ) .

فقالَ (أبو طالب) :

ـ ولكنَّا لا نرضَى أنْ يكونَ أجْرُهُ كأجْرِ أقرانه ، فَهُوَ مَنْ هُوَ كما تعرفينَ !

فقالتْ (خديجةُ) :

ـ لو سألتَ ذلكَ لبَعيد بَغيضٍ فعَلْنا ، فكيفَ وقدْ سألتَهُ لحبيبٍ قريبٍ !

وعادَ (أبو طالبٍ) إلى ابنِ أخيه ليبشِّرَه بهذا الأمرِ ، وقالَ له :

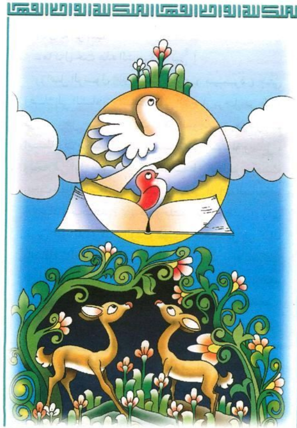
ـ هذا رزقٌ قدْ ساقه اللَّهُ إليكَ .

وخرجَ (محمدٌ) ﷺ مع (مَيْسَرَةَ) غُلامِ السيدة (خديجة) إلى الشامِ ، وفي الطريقِ وقفَ النبيُّ ﷺ تحتَ ظلِّ شَجرةٍ ، بينما ذَهبَ (مَيْسَرَةُ) لقضاءِ بعضِ حاجته فسألَهُ أحدُ الرُّهبانِ قائلاً :

ـ مَنْ هذا الرجلُ الذي نزلَ تحتَ هذه الشجرةِ ؟

فقالَ له (مَيْسَرَةُ) :

ـ هذا رجلٌ مِنْ قُريشٍ مِنْ أهلِ الحرَمِ .



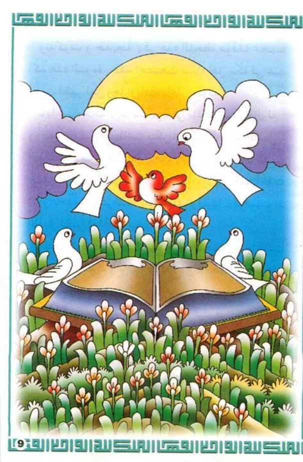
فقالَ له الرَّاهبُ :

ـ ما نزلَ تحتَ هذه الشجرة إلا نبيٌّ !

وواصلَ الرسولُ ﷺ السيرَ هُوَ و (مَيْسَرَةُ) حتَّى وصلا إلى الشامِ ، وهناكَ التقى التجارُ برجلٍ من طرازٍ فريدٍ ، رجلٍ حسنِ الحديثِ ، أمينٍ لدرجةٍ لم يعْهَدُوها ، استطاعَ أنْ يكْسِبَ وُدَّهُمْ وثقتَهُمْ في سُهولةٍ ويُسْرٍ ، ونَجحَ في أوَّلِ مهمةٍ له نجاحًا منقطعَ النظيرِ ، حيثُ رَبحَت القافلةُ أضعافَ ما كانتْ تربحُهُ في المراتِ السابقةِ .

وعادَ (محمدٌ) ﷺ من رحلتِه رابحًا مظفرًا ، وفي طريقِ عودتهِ ـ وكانَ الوقتُ ظهرًا ـ شعرَ كلُّ مَنْ كانَ بالقافلةِ بالتعبِ والإعياءِ بسببِ شدَّةِ الحرِّ ، إلا ما كانَ من أمرِ (محمدٍ) ﷺ ، فقدْ أرسلَ اللهُ غمامةً تسيرُ معه وتُظلُّهُ أينما سارَ ، ولاحظَ ذلكَ (مَيْسَرَةُ) ومَنْ كانَ معه .

ولما رجعَ (مَيْسَرَةُ) إلى السيدة (خديجةَ) وسألته عن الرحلةِ ، ولم تنسَ أنْ تسألَهُ عنْ (محمدٍ) ، أخبرها (مَيْسَرَةُ) عنْ عُذوبةِ حديثِه ورقَّتِه في المعاملةِ معَ الناسِ ، على أنَّ أهمَّ مالفتَ نظرَ السيدةِ (خديجةَ) ، كانَ حديثَ الراهبِ عن (محمدٍ) ﷺ وأنه سيكونُ نبيًّا لهذه الأُمَّةِ .



وتذكَّرتْ (خديجةُ) فى هذه اللحظة موقفًا عجيبًا أكَّدَ هذه النبوةَ ، فقد اجتمعتْ نساءُ أهلِ مكَّةَ فى عيدٍ لَهُنَّ ، فظهرَ لَهُنَّ رجلٌ ونادَى بأعلى صوته :

ـ يا نساءَ مكَّةَ ، إنه سيكونُ فى بلدكُنَّ نبىٌّ يُقالُ له : (أَحْمَدُ) ، فمنِ استطاعتْ منكنَّ أنْ تكونَ زوجًا له فَلْتَفْعَلْ .

واستبشرتْ (خديجةُ) خيرًا فى نفسها ، لأنَّ النساءَ حملنَ الحجارةَ ورمينَ بها هذا الرجلَ ، إلا هى فقدْ أخذت الأمرَ بجديَّةٍ ، وعرضتْهُ على عقلِها وقلبِها ، فأحسَّتْ أنَّ الأقدارَ تُخبِّئُ لها أنباءً سعيدةً .

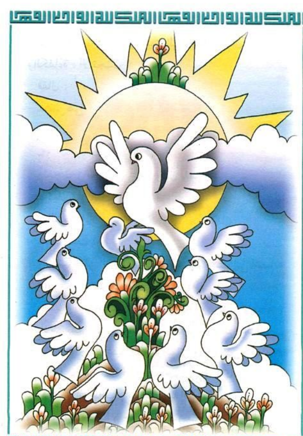
وتمنَّتْ (خديجةُ) أنْ تصبحَ زوجَ (محمدٍ) ، وأحسَّتْ نحوه بحبٍّ شديدٍ وعاطفةٍ صادقةٍ ، ولم تُخْفِ مشاعرَها ، فقدْ أبدتْ رغبتَها فى الزواجِ منْ (محمدٍ) لصديقةٍ لها وطلبتْ منها أنْ تختبرَ مشاعرَ (محمدٍ) ورغبتَهُ فى الزواجِ منها وذهبتْ صديقةُ (خديجةَ) إلى (محمدٍ) ، فقالتْ له :

ـ ما يمنعُكَ أنْ تتزوَّجَ ؟

فقالَ :

ـ ما بيَدَىَّ ما أتزوَّجُ به .

فقالتْ :



ـ فإنْ كُفيتَ ذلك ، ودُعيتَ إلى الجمالِ والمالِ والشرفِ والكفاءة ، ألا تُجيبُ ؟

فقالَ :

ـ فَمنْ هيَ ؟

فقالتْ :

ـ (خديجةُ بنتُ خُويلد) .

وتعجَّبَ (محمدٌ) ﷺ ، وقالَ للمرأة :

ـ كيفَ لي بذلك ؟

فقالتْ :

ـ عليَّ ذلك .

وعندئذ أعلنَ الرسولُ ﷺ قَبُولَهُ ، ثُمَّ ذهبَ إلى أعمامِهِ ليُشاوِرَهُمْ في هذا الزواج والاستعداد له .

وتحمَّسَ أعمامُ النبيِّ ﷺ لهذا الزواج ، فـ (خديجةُ) امرأةٌ شريفةُ الحسبِ والنسب ، طاهرةُ الظاهرِ والباطنِ ، رفضتِ الزواجَ منْ أغنياء مكَّةَ ووُجهائها ، كما أنَّ (محمداً) هوَ أكملُ شبابِ مكَّةَ عقلاً ، وأحسنُهُمْ سلوكًا .

وذهبَ (أبو طالب) مع ابن أخيه إلى أعمام (خديجةَ) ، وطلبَ منهُمْ خِطْبَةَ (خديجةَ) لـ (محمدٍ) ، وقالَ وهو

يذكرُ محاسنَ ابن أخيه :

ـ أمَّا بَعْدُ ، فإنَّ (محمداً) ممَّنْ لا يُوازَنُ به فتىً منْ قُريش إلا رجَحَ به شرفًا ونُبلاً وفضلاً وعقلاً ، وإنْ كانَ فى المالِ قلَّةٌ ، فإنما المالُ ظِلٌّ زائلٌ ، وإنَّ ابننا له فى (خديجةَ بنت خُويلد) رغبةٌ ، ولها فيه مثلُ ذلكَ !

وزوَّجَها عمُّها (عمرُ بنُ أسد) بعد أنْ دَفعَ لها رسولُ اللهِ ﷺ عشرين ناقةً مهرًا لها .

وبدأ (محمدٌ) ﷺ حياتَه الزوجية مع المرأة التى أحبته حبًّا صادقًا ، وتمنَّتْ أنْ تُصبحَ زوجةً له ، لما كانَ يتمتَّعُ به منْ أخلاقٍ عظيمة ، وأدبٍ جمٍّ ، كما أنها كانتْ ترجو أنْ يُصبحَ هو نبيَّ هذه الأمةِ ، فقدْ كانتْ كلُّ الدلائل تُشيرُ إلى ذلك .

عاشَ الزوجانِ حياةً هانئةً سعيدةً ، ورزقَهما اللَّهُ بالبنينَ والبناتِ ، فقدْ رُزقَ الزوجانِ (بالقاسمِ ، وعبدِ اللَّهِ ، وزينبَ ، ورقيَّةَ ، وأمِّ كلثومَ ، وفاطمةَ) .

ولم يُعكِّرْ صفوَ حياتهما شيءٌ ، إلا فقدهُما لا بْنَيْهما (القاسم ، وعبد اللَّه) ، وهما لا يزالان فى فترة الرَّضاعة ، لكنهما صَبَرا واحتسبا ذلك عندَ اللَّه ، فقدْ دخلَ الرسولُ ﷺ على (خديجةَ) وهى تبكى فسألَها عَنْ ذلك ، فقالتْ :

ـ يا (محمدُ) ، تذكَّرتُ ابنى (القاسمَ) فبكيْتُ ، وتمنيْتُ لو عاشَ حتَّى يَسْتكمِلَ رَضاعَهُ .

فقالَ لها (محمدٌ) ﷺ :

ـ إنَّ له مُرْضعًا فى الجنة تستكمِلُ رَضاعَتَهُ .

فقالتْ :

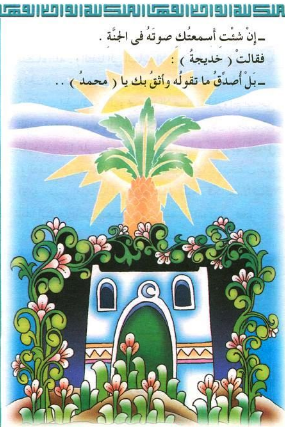
ـ لو كنتُ أعلمُ ذلك لهوَّنَ عليَّ .

فقالَ لها :

ـ إنْ شئْت أسمعتُك صوتَه فى الجنَّة .

فقالتْ (خَديجةُ) :

ـ بَلْ أُصدِّقُ ما تقولُه وأثقُ بك يا (محمدُ) ..



وعادت الحياةُ مرةً أُخرى إلى طبيعتها ، فقدْ رضىَ الزوجان بقضاءِ اللَّه ، والتفتا إلى البنات الأربَع ، وأحاطاهُنَّ بالرِّعاية والحنان ، ما جعلهُنَّ يَشعُرنَ بالسَّكينة والاطْمئنان .

كانت الحياةُ بينَ الزوجين مثالاً صادقًا للزواج الناجح الذى يقومُ على الوُدِّ والتفاهُم الكامل ، فها هى ذى (خديجةُ) تقومُ بدورها على أكْمل وجه ، فتهيِّئُ الجوَّ لزوجها للتأمُّل والتفكُّر ، وتعينُه على نوائب الدهر بمالها ، وتخفِّفُ عنه آلامَهُ بحسن إصغائها له ودوامِ الثناء عليه ، فكانتْ لا تُنكرُ أبدًا أنها هى التى سعتْ للزواج منه ، وتقولُ فى فخر :

- إنى قد رغبتُ فيك لحسن خُلُقكَ ، وصدق حديثكَ .

ولم يكُن هذا الكلامُ يُسْعدُ الرسولَ ﷺ فحسبُ ، ولكنه كانَ يمنحُهُ الثقةَ والاطمئنانَ ويُتيحُ له الفرصةَ للتأمُّل فى الكون فى تلكَ المرحلة التى سبقتْ نُزولَ الوحيِ عليْه .

(تَمَّتْ)

الكتاب القادم

خديجة بنت خويلد (٢)

خير نساء الجنة

رقم الإيداع : ٢٠٠٠/٥٥٧٩
الترقيم الدولى : ٥ - ٤٧٥ - ٢٦٦ - ٩٧٧